262961 ـ يستشكل عقيدة خلود أهل الجنة؟

السؤال

فكرة الخلود تطرأ على ذهني كثيراً في الآونة الأخيرة ، وتخيفني جداً، لن نموت ولن نكبر، سنعيش ونعيش إلى مالا نهاية ، وأشعر بأنني سأجن إن استمريت في التفكير بها ، فأشغل تفكيري بأشياء أخرى سريعاً . سؤالي هو : ألن يكون هناك ملل في الجنة ؟ فكرت في كل الأشياء الجميلة ، ولكنني فكرت أيضاً أنني سأمّل منها ؛ لأنني سأفعلها كلها فالأبدية مدة طويلة ؟ أرجو الرد ؛ لأن هذه الفكرة تخيفني جداً كما قلت.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا:

الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا؛ حيث قال عز وجل: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الملك /1 ـ 2.

فقد خلق الله الإنسان قاصرا ، في وسائل العلم ، ليبتليه بالإيمان بالغيب؛ قال الله تعالى:

الم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ البقرة /1 ـ 5.

وخلقه ضعيفا تعتريه الأمراض والتعب والحزن والملل والسآمة والموت والفقر والحاجة ليبلوه بالصبر.

قال الله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ البقرة/155.

وقال الله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ محمد/31.

فإذا مات المؤمن انقطع عنه التكليف والابتلاء وانتقل إلى دار الجزاء، فيخلقه الله على هيئة تناسب دار النعيم ، فيعطيه قدرة على إدراك ما كان عاجزا عنه في الدنيا .

وعلى سبيل المثال: الإنسان عاجز في هذه الدار ، عن أن يطيق النظر إلى نور وجه الله الكريم؛ لكن هذا العجز يزيله الله عن

المؤمنين في الجنة ، فيخلقهم على هيئة لها طاقة برؤية الله تعالى ، وتتنعم بذلك ، بل هو أعظم وأجل نعيم للمؤمنين في الجنة ؛ كما أخبر بذلك الوحي؛ قال الله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ القيامة/22 ـ 23.

وعَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ رواه مسلم (181).

وبعد أن كان المؤمن في الدنيا يتمتع بها على وجه فيه نقص لضعفه وعجزه، يُخلَق في الآخرة على هيئة تحقق له كمال التمتع بنعم الله تعالى عليه في الجنة، وإلى هذا أشارت نصوص الوحي؛ ومن ذلك:

فعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ.

قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟

قَالَ: جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ رواه مسلم (2835).

فالحياة في الجنة : هي حياة كاملة ؛ لا نقص فيها بوجه من الوجوه . قال الله تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ العنكبوت /64.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:

" وأما الدار الآخرة، فإنها دار (الْحَيَوَانُ) أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل، والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر " انتهى من "تفسير السعدي" (ص 635).

وهذا الكمال لا يعقبه نقص أبدا ولهذا سميت الجنة دار السلام؛ كما في قوله تعالى: لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الأنعام/127.

ثانيا :

وبناء على هذا؛ فإن الشبهة التي تشوش على تفكيرك ليس لها أساس عقلي ولا شرعي:

فأما عقلا: فلأنه ظهر بما سبق أن الحياة الدنيا والحياة في الجنة لا تشتركان إلا في أصل الحياة؛ لكنهما مختلفتان، فهذه ناقصة وتلك كاملة، ولهذا لا يمكن أن نقيس الكاملة على الناقصة؛ فلا نقول إذا وجد ملل في الدنيا الناقصة ، سيوجد في الآخرة الكاملة، أو إذا صعب على فهمنا القاصر في هذه الدنيا إدراك سعادة الخلود في الجنة ؛ فنقول : إن هذا القصور في الإدراك سيصحب المؤمن في الجنة الكاملة، فهذا قياس فاسد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

" والغلط في "القياس" يقع من تشبيه الشيء بخلافه، وأخذ القضية الكلية باعتبار القدر المشترك من غير تمييز بين نوعيها، فهذا هو "القياس الفاسد" كقياس الذين قالوا إنما البيع مثل الربا، وقياس إبليس – أي فيما حكاه الله عنه (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)ـ،. ونحو ذلك من الأقيسة الفاسدة التي قال فيها بعض السلف: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. يعني: قياس من يعارض النص ومن قاس قياسا فاسدا، وكل قياس عارض النص فإنه لا يكون إلا فاسدا، وأما القياس الصحيح فهو من الميزان الذي أنزله الله، ولا يكون مخالفا للنص قط، بل موافقا له. " انتهى من "مجموع الفتاوى" (6 / 299 – 300).

وأما شرعا؛ فإن الوحي وصف حياة أهل الجنة بأنها سعادة دائمة، لا يلابسها أي حزن.

قال الله تعالى: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ فاطر/33 ـ 35.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:

" (وَ) لما تم نعيمهم، وكملت لذتهم (قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدا، وهو في تزايد أبد الآباد....

(لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع .

وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن " انتهى من "تفسير السعدي" (ص 690).

ولهذه السعادة الكاملة : فإن أهل الجنة لا يرغبون تركها أبدا ولا يملّون منها؛ كما أخبر بذلك الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا الكهف/107–108.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: " فإن قيل: قد علم أن الجنة كثيرة الخير، فما وجه مدحها بأنهم لا يبغون عنها حولا؟

فالجواب: أن الإنسان قد يجد في الدار الأنيقة معنى لا يوافقه، فيحبّ أن ينتقل إلى دار أخرى، وقد يملّ، والجنة على خلاف ذلك " انتهى من "زاد المسير" (3 / 114).

والله تعالى وعد أن يعطي المؤمن ما يشتهيه.

قال الله تعالى: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الزخرف/71.

فيلزم منه أنه لو افترضنا أن المؤمن يصيبه الملل – وهذا ما لا يكون- فسيشتهي أن يزال عنه، فيزيله الله تعالى، والله على كل شيء قدير ولا يخلف وعده.

ثالثا:

ذكر الوحي تفاصيل نعيم الآخرة وعذابها ليحث العباد على امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

فعلى المسلم أن يسوس نفسه في مثل هذه الأفكار والخواطر ، بما يحقق له التقوى والاجتهاد في الأعمال الصالحة ، ولا يدع قلبه نهبا للشيطان ، يلقي بها في أودية الوساوس والخطرات والأوهام والشبهات؛ لأن المقصود من هذا العلم وجود نشاط في العمل، فإذا خرج التدقيق بالمسلم إلى الخوف غير المحمود ، الذي لا يدفعه إلى تقوى ، ولا إلى عمل صالح ، وإنما يفتح عليه الوساوس ؛ فالذي ينبغي عليه أن يكف نفسه عنه ، وأن يغلق عنه هذه الأبواب ، بالكلية .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا؟ مَا كَذَا؟ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ رواه البخاري (7296) ، ومسلم (136) واللفظ له.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ رواه البخاري (3276) ، ومسلم (134).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى:

" ومما يدخل في النهي عن التعمق والبحث عنه: أمور الغيب الخبريّة التي أمر بالإيمان بها، ولم يبين كيفيتها، وبعضها قد لا يكون له شاهد في هذا العالم المحسوس، فالبحث عن كيفية ذلك هو مما لا يعني، وهو مما ينهى عنه، وقد يوجب الحيرة والشك، ويرتقي إلى التكذيب.

- ثم ذكر حديث أبي هريرة وأنس السابقين، ثم قال:-

قال إسحاق بن راهويه: لا يجوز التفكر في الخالق، ويجوز للعباد أن يتفكروا في المخلوقين بما سمعوا فيهم، ولا يزيدون على ذلك، لأنهم إن فعلوا تاهوا، قال: وقد قال الله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

فلا يجوز أن يقال: كيف تسبح القصاع، والأخونة، والخبز المخبوز، والثياب المنسوجة؟

وكل هذا : قد صح العلم فيهم أنهم يسبحون، فذلك إلى الله ، أن يجعل تسبيحهم كيف شاء وكما يشاء، وليس للناس أن يخوضوا في ذلك إلا بما علموا، ولا يتكلموا في هذا وشبهه ، إلا بما أخبر الله، ولا يزيدوا على ذلك، فاتقوا الله، ولا تخوضوا في هذه الأشياء المتشابهة، فإنه يرديكم الخوض فيه عن سنن الحق " انتهى من "جامع العلوم والحكم" (2 / 172 ـ 173).

والله أعلم.